ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ[1] وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾

والشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والماء الذى نشربه له علاقة بالشمس والتى تُبخِّره من مياه البحار ؛ ونروى به أيضاً الأرض التى تنتج لنا الثمار ؛ أما البحار فحساب كُلٍّ ما يجرى فيها يتم حسب التقويم القمرى .

وهل كان رسول الله ﷺ يعلم كل ذلك وهو النبى الأمى ؟

طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن ؛ يضمُّ حقائق الكون كلها .

وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر « دائبين » من الدَّأب ، والدُّؤوب هو مرور الشيء فى عمل رتيب ، ونقول « فلان دَءُوب على المذاكرة » أى : أنه يبذل جَهْداً مُنظَّماً رتيباً لتحصيل مواده الدراسية ، ولا يُبدد وقته .

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً .

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . ودائبين : أى مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف] . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . [القاموس القويم ١/٢١٩] .

وعلى سبيل المثال نحن نحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار ؛ ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً :

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. ۝٩٦ ﴾ [الأنعام]

أى : أنك أيها الإنسان ستجعل من ظهور واختفاء أىٍّ منهما حساباً .

وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة فى الحركة تُيسِّر علينا أن نحسبَ بهما الزمن ، فلا اصطدامَ بينهما ، ولكلٍّ منهما فَلَكٌ[1] خاص وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان . ولا يُشْبِهان بطبيعة الحال الساعاتِ التى نستخدمها وتحتاج إلى ضبط .

وكلما ارتقينا فى صناعة نجد اختراعاتنا فيها تُقرِّبنا من عُمْق الإيمان بالخالق الأعلى .

وفى نفس الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ[2] لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى . قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنبياء] أى : فى مدار تدور فيه . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. ۝٥٤ ﴾ [الأعراف] أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

وبما أن الشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والنهار يسبق الليل فى الوجود بالنسبة لنا . كان مُقْتضى الكلام أن يقول : سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية ؛ ويسطع فى الليل ؛ والليل مخلوق للسكون ؛ لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض ؛ بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكدّ ويكدح فيها .

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يستمد ضَوْءَه منها ؛ ثم جاء بخبر الليل وخبر النهار ، فكأن الله قد اكتنفَ هذه الآية بنوريْن .

النور الأول : من الشمس . والنور الثانى : من القمر ، كى يعلَم الإنسانُ أن حياته مُغلفة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تظننّ أيها الإنسانُ أن الأصل هو النوم ! ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لترتاح ؛ ثم تصحو لتكدح .

ونلحظ أن كلمة « التسخير » تأتى للأشياء الجوهرية ، وتأتى للمُسخَّرات أيضاً ، فالحيوان مُسخَّر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسخَّرة بما فيها لنا ، أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر ؛ هما الشمس والقمر ؛ والليل والنهار مُسبَّبان عن شيئين مُباشرين هما : الشمس والقمر .

والتسخير ـ كما نعلم ـ هو منع الاختيار . وإذا ما سَخَّر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأتّى فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسخَّر هو الذى يتأتى فيه الاختلال ؛ ذلك أنه قد يسير على جَادَّة الصواب ، أو قد يُخطىء .

وفى مسألة التسخير والاختيار تَعِب الفلاسفة فى دراستها ؛ وذهبت المذاهب الفلسفية - وخصوصاً فى ألمانيا - إلى مذهبين اثنين ظاهرهما التعارض ؛ ولكنهما يسيرانِ إلى غايةٍ واحدة وهى تبريرُ الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكونَ مذهبٌ منهما يُبرر الإلحاد ، وأنْ يبررَ الآخرُ الإيمانَ ، ولكن شاء فلاسفة المذهبين أنْ يُبرروا الإلحاد .

وقال فلاسفة أحد المذهبين : أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة قادرة حكيمة ؛ وأن كُلّ ما فيه منضبط بتّصرفات محسوبة ودقيقة .

ولكن الواقع يقول : إن هناك بعضاً من المخالفات التى نراها فى الكائنات ، والمثل هو تلك الشذوذات التى فى الإنسان - على سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللازم ؛ وهناك الطويل أكثر من اللازم ؛ وهناك مَنْ يولد بعين واحدة ؛ وهناك مَنْ يولد بذراع عاجز ؛ ولو أن القوة التى تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرتْ أمثال تلك الشذوذات .

ونرد على صاحب' تلك النظرية قائلين : وإذا لم يكُنْ هناك إله ، أتستطيع أن تقول لنا الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات ؟ فأنت تدفع الحكمة عن الخالق الذى نؤمن به ؛ فهل تستطيع أنت إثباتَ الحكمة لغيره ؟ طبعاً لن يستطيع أنْ يردَّ عليك ؛ لأن كلامه مردود .

ثم نأتى للمدرسة المقابلة التى تقول : إن النظام الموجود بالكون يدل على أنه لا يوجد له خالق ؛ فهو نظام ثابت آلىّ ؛ ولا يوجد إله قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين ؛ ومتعارضتين ؛ ولكنهما يؤديان إلى الإلحاد .

ونرد على المدرستين قائلين : يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً على وجود إله ؛ فهذا الثبات موجود في الكون الأعلى . ويا من تأخذ الشذوذ دليلاً على وجود خالق ؛ فهو موجود في الكائنات الأدنى ؛ ولو حدث الشذوذ في الكائنات الأعلى لَفسدتِ السماوات والأرض .

وقد شاء الحق سبحانه أن يوجد الشذوذ لوجه في الأفراد ؛ فواحد يكون شاذاً ، والباقي الغالب يكون سليماً .

وهكذا يكون الشذوذ في الأفراد غيرَ مانع لقضية وجود خالق أعلى ، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى ؛ كي تعلم أنه لا يوجد للإنسان مَدْخل في هذا الأمر .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سخَّر لنا الليل والنهار ؛ وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ؛ وكلاً من الشمس والقمر دائبين ، يمشي كل منهما في حركته مشياً لا تنقطع فيه رتابة العادة . ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدد - على سبيل المثال - أوائل الفصول ومواسم الزراعة ؛ ومواقيت الصلاة .

وإذا نظرتَ إلى أيِّ اختلال قد ينشأ من بعض الظواهر ؛ فاعلم أن ذلك قد نشأ من تدخُّل الإنسان المُخْتار المُسْتخلَف في الأرض ؛ والمثال هو مشكلة ثُقْب طبقة الأوزون الموجودة في الغلاف الجوي ، والتي قد نشأت من تجاربنا التي نلهث فيها من أجل تحسين حياتنا على الأرض .

ولكننا ننظر إلى التجـربة بأفُق محدود ، ونفصل النظـرة الجزئية عن النظرة الكلـية المطـلوب منا أنْ ننظرَ بهـا لكُل مـا يحـيط بنا فى الكون ؛ فنتسبب بهذا اللهْث فى التجـارب فى إفساد الكثير من أسرار حـيـاتنا على الأرض ؛ حــتى بِتْنَا نـشكو من اضطراب الجــو بَرْداً وصقيعاً ؛ وحراً فوق الاحتمال .

وذلك بتدخُّل الإنسان المختار فيما لا يجب أنْ يتدخلَ فيه إلا بعد أن يدرسَ كل جوانبه . واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١)﴾ [الروم]

ولذلك لابُدَّ من دراسة المُقدّمات والنتائج جيداً قبل أن نُضخِّم من تجاربنا التى قد تضر البشر ؛ ولذلك أيضاً أقول : إن علينا أن ندرس الآثار الجانبـية لكل اختـراع علمى كى نحمىَ البـشر من سيـئات تلك الآثار الجانبية .

ولنتذكر قول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

ولعل ما نعيش فيه من مُشْكلات تتعلق بالجو والصحة هو نتيجة تدخُّلنا بغيـر علم مكتمل ؛ وهذا يؤكد لنا حكمـة الخالق الأعلى ؛ ذلك

---

(١) قفـاه يقفوه : مشى خلفـه أو تبعه . وقـوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسـراء] . أى : لا تتبـع من العقـائد مـا ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحـداث ما لا تعرف له دليـلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عمّا ليس لك به علم . [القـاموس القويم ١٢٨/٢] .

أننا لمّا خرجنا بالمُخْترعات العلميـة وانبهرنا بفائدتها السطحية ؛ ظننا أن فى ذلك مكسباً كـبيراً ؛ ولكنه كان وبالاً فى بعض الأحيان نـتيجة الآثار الجانبية .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سـبحانه : « بمـا اكتسـبت أيدى الناس » بل قال :

﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١) ﴾ [الروم]

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾

[إبراهيم]

وهكذا نعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر ؛ يُسبِّب تعاقبَ مجىء الليل والنهار .

ولا يعنى ظهور الشـمس وسطوعها أن القمـر غير موجـود ؛ فهو موجود ، ولكن ضوء الشـمس المُبهِر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً .

أما الليل والنهـار فهمـا يتتابعـان كل منهمـا خَلْفَ الآخر . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

أى : أنهما لا يأتيان معاً أبداً ؛ فالليل فى بلد ما يقابله نهار فى بلد آخر .

وهكذا أثبتَ لنا الدأبَ فى الحركة ؛ فكُلٌّ منهما يأتى عَقِب الآخر ؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة فى الخَلْق ؛ وكانا لحظة الوجود خِلفةً ، كل منهما يأتى من بعد الآخر ؛ فكأن الكون حين خلقه الله ؛ وجعل الشمس فى مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً ؛ والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض ؛ ليأتى الجزء الذى كان غير مُواجِه للشمس ؛ فى مواجهتها ؛ فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذى كان فى مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خَلْف الآخر .

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْر بعضٍ من نعمه الكلية علينا نحن العباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سخَّر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسمَّى تعديد لبعض النعم .

ونجد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله « أعد منها ولا أعددها » . فكأن الله ينبهنا إلى أصول النظام الكونى الأعلى ، ثم فتح المجال لِنعَمٍ أخرى لن يستطيع أحد أنْ يُحصِيها .

لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

نعم ، أعطانا الحق سبحانه مما نسأل وقبل أن نسأل ، وأعدَّ الكون لنَا من قبل أنْ نوجد . إذن : فسبحانه قد أعطانا من قبل أنْ نسألَ ؛ وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكونُ آدم ، وهو مُعَدٌّ لاستقباله .

وإذا نظرتَ للفرد منّا ستجد أن نِعَم الله عليه قد سبقتْ من قبل ن نعرف كيف نسأله ، والمثل هو الجنين في بطن أمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعني : أنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله ، نطقت به أو لم تنطق ، ولو بحديث النفس أو خواطر خافية ، وأنك قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرغبة في التحدي - ولله المثل الأعلى - نجد بعض البشر ممَّنْ أفاء الله عليهم بجزيل نعمه ؛ ويقول الواحد منهم : قُلْ لي ماذا تطلب ؟

وقد حدث معي ذلك ونحن في ضيافة واحد ممَّنْ أكرمهم الله بكريم عطائه ، وكنا في رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية ،

وقال لى : أطلب أى شىء وستجده بإذن الله حاضراً . وفكرتُ فى أن أطلب ما لا يمكن أن يوجدَ معه ، وقلت : أريد خيطاً وإبرة ، فما كان ردّه إلا « وهل تريدها فتلة بيضاء أم حمراء ؟ » .

وإذا كان هذا يحدث من البشر ؛ فما بالُنا بقدرة الله على العطاء ؟

ومن حكمة الله سبحانه أنه قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن وراء كل عطاء حكمة ، ووراء كل مَنْع حكمة أيضاً ، فالمنع من الله عين العطاء ، فالحقّ سبحانه مُنزَّه عن أن يكون مُوظّفاً عندك ، كما أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

ولذلك قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

أى : بعض ممّا سألتموه ، ذلك أن هناك أسئلة حمقاء لا يُجيبكم الله عليها ؛ مثل قول أى امرأة يعاندها ابنها « يسقينى نارك » هذه السيدة ؛ لو أذاقها الله نارَ افتقاد ابنها ؛ ماذا سوف تفعل ؟

إذن : فمنْ عظمته سبحانه أنْ أعطانا ما هو مُطابق للحكمة ؛ ومنَع عنّا غَيْر المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمَنْع نعمة أيضاً ، ولو نظر كُلٌّ منا لعطاء السَّلْب ؛ لَوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه :

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك فلا يقولن أحدٌ : « قد دعوتُ ربى ولم يَستجِب لى » وعلى الإنسان أن يتذكَّر قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾

[الإسراء]

فهو سبحانه مَنْ يملك حكمة العطاء وحكمة المنع . ولا أحدَ منّا يستطيع أنْ يعُدّ نعَم الله . والعَدُّ - كما نعلم - هو حَصْرٌ لمفرداتَ جَمْع أو جزئياتَ كُلٍّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق - ونسميهم المَنَاطقة- أن هناك « كُلّىّ » يقابله « جُزئىّ » ، وهناك «كُل » يقابله « جزء » .

والمَثل على « الكُلىّ » الإنسان ؛ حيث إننا جميعاً مُكوّنين من عناصر متشابهة ؛ ومفرد البشر يختلف باختلاف الأسماء ؛ أما ما يُسمَّى « كل » فالمثل عليه هو الكُرسى ، وهو مُكوّن من مواد مختلفة كالخشب والمسامير والغرَاء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب فقط كلمة كرسى ؛ وكذلك لا نَستطيع أن نُسمِّى « المسامير » بأنها كراسى .

وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكُلىّ أن مفرداته متطابقة ، وإنِ اختلفت أسماؤها ، لكن حقيقة الكُلّ أن مفرداته غير متشابهة ، وتختلف فى حقيقتها .

وإذا أردتَ أنْ تُحصى الكُلىّ فأنت تنطق أسماء الأفراد كأن تقول : محمد وأحمد وعلى ؛ وهذا ما يُسمَّى عداً ، وهكذا نفهم أن العَدَّ هو إحصاءُ جزئيات الكلى ، أو إحصاء أجزاء الكُلّ .

ونعلم أنهم قد سَمَّوْا العَدَّ إحصاءً ؛ لأنهم كانوا يعدُّون الأشياء قديماً بالحصَى ؛ وأُطلقت كلمة الإحصاء على مُطْلق العَدِّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجزاء الكلى أو الكل .

وكان الإنسان فى العصور القديمة يَعُد - على سبيل المثال - إلى رقم « مائة » ، ثم يحسب كل مائة بحصاة واحدة ؛ فإذا تجمَّع لديه عَشْر حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا جاءت كلمة الإحصاء ، وفى كثير من أمور عصرنا المتقدم ؛ ما زِلْنا نُسمِّى بعض الأشياء بمُسمَّيات قديمة ؛ فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأنت إذا نظرتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد الكثير من المعانى ، ولكن مَنْ يحاولون التصيُّد للقرآن يقولون : إن هذا أمر غَيْر دقيق ؛ فما دام قد حدث العَدّ ؛ فكيف لا يتم الإحصاء ؟ وهؤلاء ينسوْنَ أن المقصود هنا ليس العدّ فى ذاته ؛ ولكن المقصود هو إرادة العدِّ .

ولو وُجدت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، ومن هنا لا نرى تعارضاً فى آيَات الله ، وإنما هو نسق متكامل ، فأنت لا تُقبل على عَدِّ أمر إلا إذا كان غالبُ الظن أنك قادرٌ على العَدِّ ، وذلك إذا كان فى إمكان البشر ، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر .

والمثَل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن نجده فى قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة]

ونحن لا نغسل وجوهنا لحظة أن نقومَ بالصلاة ؛ ولكننا نغسلها ونستكمل خطوات الوضوء حين يُؤذّن المؤذن ونمتلك إرادة الصلاة ، فكأن القول هنا يعنى : إذا أردتمُ القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا وكذا .

ونعلم أن ذِكْر الشيء بسببه كأنه هو ؛ ولذلك يُقال : إذا كان الآذان قد أذّن فى المسجد ؛ وأنت خارج من منزلك بقصد الصلاة ؛ فلا تجرى لتلحق بالإمام وتُدرك الصلاة[1] ؛ لأنك فى صلاة من لحظة أنْ توضأتَ وخرجتَ من بيتك للصلاة ؛ وإياك أنْ تفعلَ حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدى الصلاة مع الإمام[2] .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد أن العادة فى اللغة هى استعمال « إن » فى حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المُتيقّن فنحن نستخدم « إذا » مثل قوله الحق :

---

(١) ويرشد إلى هذا حديث أبى بكرة رضى الله عنه أنه جاء ورسول الله ﷺ راكع ، فركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ، فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال : « أيكم الذى ركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ؟ فقال أبو بكرة : أنا . فقال النبى ﷺ : زادك الله حرصاً ولا تعد » أخرجه أبو داود فى سننه (٦٧٩ ، ٦٨٠) ، والبخارى فى صحيحه (٢/١١٩ ، ٢٦٧ ـ فتح البارى) وأحمد فى مسنده (٥/٣٩ ، ٤٢) .

(٢) وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٠٣ ـ المساجد) عن أبى قتادة قال : بينما نحن نصلى مع رسول الله ﷺ ، فسمع جلبة فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة ، فعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما سبقكم فأتموا » .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ [النصر]

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن العاقل يعلم مُقدَماً أنه سيعجز عن إحصاء نِعَم الله . وكلنا يعلم أن هناك علماً اسمه « الإحصاء » وله أقسام جامعية متخصصة .

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلي « الكمبيوتر » لم يستطع أحدٌ ولم يُقبل أحدٌ على إحصاء نِعَم الله في الكون ، ذلك أن العدَّ والإحصاء يقتضي كُليًا له أفراد ، أو كُلاً له أجزاء .

وأنت إنْ نظرتَ إلى أيَّ نعمة من نعم الله ؛ قد تظنها نعمة واحدة ؛ ولكنك إنْ فصَّلْتَ فيها ستجدها نِعَماً مُتعدِّدة وشتَّى ، وهكذا لا يوجد تناقض في قوله الحق :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

وأنت إنْ أخذتَ نعمة المياه ستجدها نِعَماً متعددة ؛ فهي مُكوَّنة من عناصر ، كل عنصر فيها نعمة ؛ وإن أخذتَ نعمة الأرض ستجد فيها نِعَماً كثيرة مطمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمور فيها نِعَم متعددة ، ولا تُحْصَى .

وحين تنظر في قول الحق سبحانه :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

تجد ثلاثة عناصر ؛ هى المُنعم ؛ والنعمة التى حكَم الحق سبحانه أنك لن تحصيها ، وأن خَلْقه لم يضعوا أنوفهم فى أنْ يعدّوا تلك النعمة ؛ فهى لا تحصى لأنها ليست مظنّة الإحصاء ؛ ولا يقبل عاقلٌ أن يحصيها .

والعنصر الثالث هو المُنْعَم عليه ، وهو الإنسان الذى قد يعجز عن إحصاء نعم رئيسه من البشر عليه ـ فما بالك بنعم الله التى لا تحصى ، وكمالاته التى لا تُحدّ ، وعطائه الذى لا ينفد ؟ ولله المثل الأعلى ، فهو المنزّه عن المثل .

ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وهنا فى سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه وكفره بالنعمة ، وفى كفره للنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[1] وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء هم مَن ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحدانية والإيمان بالله ، والإنسان هو المُنْعَم عليه ؛ وما كان يصحّ أن يرى كل تلك النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطى الحق لصاحبه ، ولكن بعضاً من البشر بدّلوا نعمة الله كفراً ؛ وهكذا صاروا ممّنْ يُطلَق على كل منهم أنه ظلوم فى الحكم ؛ وأنه كفّار ؛ لجحوده بالنعمة ونكرانه عطاء الخالق للمخلوق .

---

(١) صلى اللحم وغيره يصليه صَلْياً : شواه ، والصلاء : الشواء والإحراق . وصَلَى بالنار : قاسى حرّها واحترق . [لسان العرب ـ مادة : صلا] .

والظلم كما نعرف هو أن تنقل الحق من صاحبه إلى غير صاحبه ؛ وإنْ لم تؤمن بالله تكون قد أخذتَ حق الإله فى الوجود ، وإنْ كنتَ تؤمن بشركاء ؛ فأنت تنقل بذلك حقاً من الله إلى غيره ، وهذا ظلم القمة .

وانظر إلى قول الحق سبحانه فى سورة النحل :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ[1] لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ[2] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ[3] بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

فهل هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تحصى عطاءات الله التى فوق العَدِّ والحدِّ ؟ ففى الآيات السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهى .

---

(١) ذرأ الله الخلق : خلقهم وبثّهم وكثّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

(٢) مخرت السفينة تمخر : جرت تشق الماء مع صوت ، تدفع الماء بصدرها . [لسان العرب - مادة : مخر] .

(٣) مادت الأرض : اضطربت وزلزلت . ماد : تحرك واهتز . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

إن بعضاً ممَّنْ يستدركون على القرآن يقولون : كيف يقول القرآن مرة :

﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول فى آية أخرى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

ونردُّ على هؤلاء : أنتم لم تنظروا إلى السياق الذى جاء فى كل آية ، وعَمِيَتْ بصيرتكم عن معرفة أن سياقَ الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - قد جاء فيها ذِكْر النِّعم وذكر الجحود والكفران بالنعم ؛ وهذا ناشىء عن ظُلْم الإنسان لنفسه بالظُّلْم العظيم .

وفى آية سورة النحل جاء بِذكْر النعم ، ورغم ظُلْمنا إلا أن رحمته سبحانه وَسعَتْنا ، ولم يمنع عنَّا ما أسبغه[1] علينا من نِعَم ، وكأنه سبحانه يُوضِّح لنا : إياكم أنْ تستحُوا أنْ تسألونى شيئاً ؛ وإنْ كنتم قد ظلمتُم وكفرتُم فى أشياء ، فظُلْمكم يقابله غفران منِّى ، وكافريتكم يقابلها منى رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارضٌ بين الآيتين ؛ بل كُل تذييل لكل آية مناسبٌ لها ، ففى الآية الأولى يعاملنا الله بعدله ، وفى الآية الثانية يعاملنا الله بفضله .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

---

(١) أسبغ الله النعمة : أكملها وأتمها ووسَّعها . وسبغت النعمة : اتسعت . والشىء السابغ : الكامل الوافى . [لسان العرب - مادة : سبغ] .

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبنعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصف الحق سبحانه الإنسان بأنه ظلوم كفَّار ؟

ونقول : إن كلمة « إنسان » إذا أُطلقتْ من غير استثناء فهى تنصرف إلى الخُسْران والحياة بلا منهج ؛ ودون التفات للتفكير فى الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضِّح لنا ذلك قال :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ[(١)] ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه (إذ) أى « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم (رَبِّ) ولم يَقُلْ « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المربِّى ، لذلك قال « ربِّى » ولم يَقُل « يا الله » لأن عطاءَ الله تكليفٌ ، وأمام التكليف هناك تخيير فى أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصود بالبلد هنا : مكة . [تفسير القرطبى ٣٧٠٦/٥] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين .

ولم تَأْتِ مسألة إبراهيم هنا قَفْزاً ؛ ولكنّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سيسمعه هُم السادة من قريش ؛ الذين تمتَّعوا بالمهابَة والسيادة على الجزيرة العربية ؛ ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها في رِحْلَتَيْ الشتاء والصيف ؛ لليمن والشام ؛ وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام .

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أُذنه نداء الإسلام ؛ وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التي تخصُّهم ؛ لذلك قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد وردتْ هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

والفرق بين « البلد » و « بلداً » يحتاج منّا أن نشرحه ، فـ « بلداً » تعني أن المكان كان قَفْراً[1] ؛ ودعا إبراهيم أن يصبحَ هذا المكانُ بلداً آمناً أي : أن يجد مَن يقيمون فيه ، يُجدِّدون حاجاتهم ومُتطلباتهم ؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أي : ألاّ يوجد به ما يُهدِّد طمأنينة الناس على يومهم العاديّ ووسائل رزقهم .

---

(١) القفر والقفرة : الخلاء من الأرض . وقد أقفرت الأرض : خلت من الكلأ والناس . [لسان العرب ـ مادة : قفر] .

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً ؛ وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً ؛ لأن الإنسان فى أىّ بُقْعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطّن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مُقوّمات حياة ومن عدم تفزيعه تفزيعاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان فى أىّ أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أنْ نزلَ هذا المكان ، وكان وادياً غير ذى زرع ؛ ولا مُقوّمات للحياة فيه ؛ فكان دعاؤه هذا الذى جاء ذِكْره فى سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً ؛ وكان الدعاء بالأمن لثانى مرة ؛ هى دعوة لأمن خاص ؛ ففى غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة ؛ أو يصْطاد صَيْد ؛ ولكن فى هذا المكان هناك أمْنٌ خاصّ جداً ؛ أمنٌ للنبات ولكُلّ شىء يوجد فيه ؛ فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه ؛ وحتى فاعل الجريمة لا يُمَس[1] .

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثانى ؛ فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام ؛ والدعاء الثانى : هو دعاء بالأمن الخاص ؛ ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقّق فيه الأمن العام ؛ ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يُختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إلا الإذخر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٥٣) .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حَرَماً آمناً ؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس فى الحرم ؟

ونقول : وهل كان أَمْن الحرم أمراً « كونياً » ، أم تكليفاً شرعياً ؟ إنه تكليف شرعىّ عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرضة أنْ يُعصى .

وقوله سبحانه :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى أن عليكم أيُّها المُتبِّعون لدين الله أنْ تُؤمِّنوا مَنْ يدخل الحرم أنهم فى أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفىّ والأمر الكونىّ .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وهو قَوْل يحمل التنبؤ بما حدث فى البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحَىٍّ الذى أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قَوْل يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبى المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أن يُجنِّبه عبادة الأصنام ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أنْ يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه ؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفى منه سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٣٦) ﴾ [النساء]

وهو أمْر بالمداومة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا .. (٨٩) ﴾ [الأعراف]

وفى هذا القَوْل ضراعة إلى المُنعم علينا بنعمة الإيمان ؛ وفى هذا القول الكريم أيضاً إيضاحٌ لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

والصنم غير الوثن[1] ، فالمُشكَّل بشكل إنسان هو الصنم ؛ أما قطعة الحَجَرِ فقط والتى خَصَّها بعضٌ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أنْ يخرج بنَا من هذا المأزق ؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جَلى ؛ وشرك خفىّ . والشرك الجلىّ أن يعبدَ الإنسانُ أىّ كائن غير الله ؛ والشرك الخفىّ أن يُقدّس الإنسانُ الوسائطَ بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

---

(١) قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تُعمل وتُنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين [لسان العرب - مادة : وثن] .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجنِّبه وبنيه أنْ يعبدوا الأصنامَ يقتضى منّا أن نفهم معنى كلمة أبناء ؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنيه الذين يَصِلُون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام والأوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوضحه سبحانه فى مواطن أخرى . ونبدأ من قوله :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : بعد أن أخبر الله إبراهيم ، وكلّفه بالمهام التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها على وجه التمام ؛ أمّنه الحق على أن يكون إماماً ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن حيثية الإمامة هى أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبدقّة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستورَ الله فى الخَلْق ؛ فلابُدّ لنا من أن نتخلَّقَ بأخلاق الله . وعلينا ألاّ نختار أىَّ إنسان لأية مهمة ليكون إمامها ، إلا إنْ كان كُفْءً لها ويُحسِن القيام بها .

ولنتذكر قوله ﷺ :

« إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتظر الساعة » . قال السائل له عن موعد

---

(١) الكلمات : جمع كلمة ، وهى هنا أحكام الدين وتكاليفه . [القاموس القويم ٢/١٧٣] وقال ابن كثير فى تفسيره (١/١٦٥) : « الكلمات : الشرائع والأوامر والنواهى » .

قيـام الساعة : وكيف إضـاعتها ؟ قـال : « إذا وُسِّدَ[1] الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[2] .

ذلك أن إسناد أىّ أمر لغير أهله إنما هو إفساد فى الوجود ، لأن الأصل فى إسناد أىّ أمر لأى إنسان أن يكون بهـدف أن يقومَ بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سـيئاً ؛ فسيكون هذا الإنسان أُسْوة فى السوء ؛ وتنتـقل منه عدوى عدم الإتقـان إلى غيره ؛ ويتفـشّى السوء فى المـجتمع ، أمـا إذا تولى الأمر مَنْ هو أهْلٌ لـه فالموقف يخـتلف تماماً ، فـوضـع الإنسان فى مكانه اللائق ، تعتـدل به موازين العدل ، وفى اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .

والمَـثَلُ على ذلك : أن الأولاد الذين تربَّوْا فى السعـودية ؛ ورأَوْا أن يد السـارق تُقطع ؛ لم نـجـد منهم مَنْ يسـرق ؛ لأنهم تربَّوْا على أن السـارق تُقطع يده ، وفـهـموا أن الحق سـبـحـانه لحظة أنْ يضعَ عـقـوبةً قـاسـيـةً ؛ فليس هذا إذْنٌ بأن تـقـعَ الجـريمـة ؛ بل ألاَّ تقعَ الجريمة .

وحين يتساءل مَنْ يدَّعُون التحضُّر : كيف يقول القرآن :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

وحـين تجـدون مَنْ يخرج عـن الدين تقـبضـون عليـه ، وينادى البعض بإعدامه ؟

---

(١) وُسِّد : أُسند ، وأصله من الوسادة . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : وسد) : « يعنى إذا سُوِّد وشُرِّف غير المستحق للسيادة والشرف » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩ ، ٦٤٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثل هذا الحرص على كرامة الدين يُهيّب الناس أنْ يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدى لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحقّ مصحوباً بدليل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيكلّفه حياته لو أراد أنْ يخرجَ منه ، لأنه خرج من اليقين الذى دخله بالدليل .

وحين دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

كان قد نجح فى اختبار الله له ، ونجح فى أداء ما أُسند إليه تماماً ؛ وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة فى ذريته ؛ فقال :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فجاءه الجواب من الحق سبحانه :

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بُنوة الأنبياء ليست بنوة لَحْم